النتاج الجديد

الخطى الاولى في علم النكبة

سبعة كتب جديدة عن القضية الفلسطينية

ثماني عشرة سنة مرت على النكبة ، ظهرت خلالها مئات الكتب والابحاث الفلسطينية ، وبرز فيها عشرات الكتاب والمؤلفين ، حتى اصبحت « القضية » اسهل باب للمتاجرة الفكرية والادبية والسياسية واكتساب الهوية الوطنية ، ورغم هذا كله ، ما زالت القضية الفلسطينية تفتقر الى اهم عنصر من عناصر التقييم والدراسة : عنصر العلم .

واذا القينا نظرة دقيقة مفصلة على نوعية الكتب الفلسطينية التي صدرت عن مختلف دور النشر في بلدان العالم العربي ، وعلى رأسها القاهرة وبيروت ودمشق ، خلال هذه الفترة من الزمن ، لرأينا انها تنقسم ثلاثة اقسام :

القسم الاول ، وهو القسم الاكبر ، ادبي بحت ، ناتج عن ردة الفعل العاطفية التي احدثتها النكبة في نفوس ابنائها . واتسم ادب النكبة بطابع البكاء والندب والانفعال الشديد بهول الفاجعة وفقدان « ارض البرتقال » . وادباء العرب يجيدون هذا النوع من التعبير الادبي ، لانه اقرب الانواع الى طبيعتهم الغنائية. وفي داخل كل اديب عربي يكمن ذلك الشاعر الجاهلي ، الذي صار عمره اكثر من الفي سنة ، والذي لايزال يعشق البكاء على الاطلال.

القسم الثاني يمكن ان نسميه « تاريخ القضية» والذين حصروا اهتمامهم في هذا الجانب كانوا ينظرون الى النكبة من زاوية أعمق من زاوية مذبحة ارتكبت، او عرض ابيح ، او طفل قتل ، او شيخ جن . ومع هذا ، كان الباحث المؤرخ لقضية فلسطين لا يقبل ان ينشر كتابا عن القضية الا اذا تناول جميع جوانبها ، وعاد الى الاصول التاريخية الاولى، كأن كل واحد يريد بكتابه ان يلغي جميع الكتب السابقة واللاحقة عن قضيةفلسطين . وهذا النوع من التفكير عرفه مؤرخو العرب الاقدمون، فكانوا يطلقون على كتبهم التاريخية اسماء جازمة حاسمة مثل : « البداية والنهاية » ، « الكامل » ، « نهاية الارب » . واسلوب غالبية الابحاث التاريخية التي ظهرت بعد النكبة يتسم بالبيان والعاطفة اكثر مما يتسم بالدقة العلمية والموضوعية ، حتى طغت نغمة تقول بان الموضوعية في درس قضية فلسطين تعتبر خيانة كبرى !

القسم الثالث هو عبارة عن الكتب السياسية ، التي حاولت ان تدرس ابعاد النكبة وآثارها وارتباطاتها العربية والدولية . لكن هذه الكتب يغلب عليها الطابع الدعائي ، وتفتقر الى الروح العلمية الرصينة التي يجب ان تسود ابحاث قضية كالقضية الفلسطينية .

هذا الوضع دفع الدكتور قسطنطين زريق – وهو احد الاوائل الذين درسوا قضية فلسطين – الى كتابة مقال ، في العدد الذي خصصته مجلة « المعرفة » السورية في آذار ١٩٦٦ عن « القضية العربية في صراعها مع الصهيونية العالمية » ، تحت عنوان « علم النكبة »، قال فيه : « انه لمن العجب العجاب اننا نطلب المعالجة العلمية لادنى شؤوننا اهمية ولا نشعر بمثل هذه الحاجة عندما نتصدى لاعظم الشؤون والقضايا وابلغها اثراً في حاضرنا ومستقبلنا . فاذا مرض احدنا اتجه الى طبيب مختص قضى سنوات عدة في الاستعداد لمعالجة جانب من جوانب الجسم او علة من علله ... اما قضايانا الكبرى – كقضية فلسطين – فلا نعالجها بهذا الشكل ، بل لانشعر انها تحتاج الى مثل هذه المعالجة، بدليل اننا لم نهيء لها اسبابها ، ولم ننظم لها وسائلها ، ولم نبدأ بتكوين الذخيرة العلمية والاجهزة

الفنية الضرورية لها ، شأن ما نفعل في ما هودونها اهمية بمكان بعيد ... لقد كثرت الاقوال وارتفعت الاصوات في قضية فلسطين ، ولكن الايام تمضي والسنين تتتابع ، وثمة صوت واحد لم يرتفع بعد ، وان بدا فبخفوت وتقطع ودون تركـــز او اثر ملحوظ . ذلك هو صوت العالم ، العالم الذي من شأنه ان يتناول هذه القضية ، كما يتناول اية قضية اخرى ، بالدراسة المنتظمةوالتتبع المستمر والبحث الدقيق الشامل » .

ولعل اهمية الكتب الفلسطينية التي صدرت في فترة نصف السنة الاخيرة ، ان بعضها يمتاز بطابـع جديد ، لم تعرفه القضية من قبل ، طوال الثمانية عشر عاما التي مرت على النكبة . وهذا الطـابـع الجديد له ميزتان اساسيتان :

اولاهما ميزة الاختصاص واللاشمول ، والايمان بان الدراسات التفصيلية المجزأة الدقيقة التي تتناول جانبا من بين مئات الجوانب الاخرى ، هي اهم من الدراسات الشاملة الواسعة المتشعبـة التي تريد ان تقول كل شيء ، ولا تقول شيئا .

وثانيتها الروح العلمية الموضوعية، التي تأنف من استعمال الكلمات الديماغوجية والغوغائية الرخيصة والمسيئة الى جوهر القضية .

ولعل دراسة هذا النـوع الجديد من الكتب العادية خلال فترة نصف السنة الاخيرة ، يوضح لنا اكثر باننا في طريق البداية لما يسميه الدكتور قسطنطين زريق بعلم النكبة .

اغلب هذه الكتب الجديدة صدرت عن « مركز الابحاث » ، التابـــع لمنظمة التحرير الفلسطينية ببيروت والذي افتتح في شباط (فبراير) ١٩٦٥ ، واصدر منذ ذلك التاريخ عددا من الكتب هي في الواقع ابحاث علمية موضوعية تعالج جوانب حساسة وهامة باسلوب واضح صريح بعيد عن الغوغائية والابتذال .

خلال الاشهر القليلة المـاضية صدر في سلسلة « ابحاث فلسطينية » (وهي احدى سلاسل ستّ يصدرها المركز) كتاب للدكتورانيس صايغ بعنوان « فلسطين والقومية العربية » ، كما صدرت في سلسلة « حقائق وارقام » ستة كتب ونشرات ، هي : « اسرائيل في الميدان الدولي » بقلم ليلى القاضي ، « القضية الفلسطينية في ٣٣ مؤتمرا دوليا » بقـلم ليلى القاضي ، « المساعدات الامريكية والالمانية الغربية لاسرائيل» بقلم اسعد عبد الرحمن، «عرض موجز للقضية الفلسطينية » بقلم الحـكم دروزه ، « الصحف الاسرائيلية» بقلم سلوى حبيبي، و «الحياة السياسية في اسرائيل » بقلم رفيق مطلق .

كما صدرت ايضاعن المركز ثلاثة كتب سنتناولها بالبحث ، في سلسلة « دراسات فلسطينية » ، هي : « الكيبوتز او المزارع الجماعية في اسرائيل » بقلم عبد الوهاب كيالي، « الجذور الارهابية لحزب حيروت الاسرائيلي» بقلم بسام ابو غزالة، «الماباي، الحزب الحاكم في اسرائيل » بقلم ابراهيم العابد .

وعن بيروت ايضا ، وعن « مؤسسة الدراسات الفلسطينية » التي بدأت العمل في منتصف عـام ١٩٦٥ ، صدر حديثا كتابان ، هما : « الكتاب السنوي للقضية الفلسطينيةلعام ١٩٦٤» و« الوثائق الفلسطينية لعام ١٩٦٥ » .

ومن الكتب الفلسطينية التي صدرت مؤخرا بنفس روح التخصص والعـلم ، كتاب صدر في القاهرة بعنوان « الدعاية الصهيونية ، وسائلهـا واساليبها وطرق مكافحتها » لحامد محمود .

« الكيبوتز »

كتاب « الكيبوتز » للاستاذ عبد الوهاب كيالي هو اول دراسة من نوعها في اللغة العربية ، تصدر عن اهم تجربة اقتصادية واجتماعية وعسكرية في اسرائيل .

في الفصول الثلاثة الاولى، عرض لنشأة الكيبوتز ، وللحياة داخلها، ثم لاهميتها العسكرية والستراتيجية. يتحدث المؤلف عن العوامل الرئيسية التي ادت الى نشأة الكيبوتز ، وعن اطارهـا العقائدي ، فيقول بان نشوء الكيبوتز (المزارع الجماعية) يرتبط بالعقيدة الصهيونية من حيث الاهداف والافكار ، وبالمؤتمر الصهيوني الاول (١٨٩٧) من الناحيتين التاريخية والتنظيمية . واهداف الحركة الصهيونية ومبادؤها تقوم على السعي من اجل استعمار فلسطين بواسطة العمال الزراعيين والصناعيين اليهود . هذا

ما ظهر عمليا في فترة الهجرة الاولى ، ثم في فترة الهجرة الثانية ، مع فلسفة غوردن التي تقوم على « دين العمل » . هذا كله دفع بالصهيونيين الى التمسك في الحصول على الارض لصالح « الامة اليهودية » ، مهما كلف الامر . وقد حققت المستعمرات الجماعية الصهيونية اهدافها في فلسطين مع تطور الزمن ، فاصبحت ذات وجود وكيان ثابت : يتكون سكانها من المقاتلين والبنائين، وتعمل من اجل تحقيق اهداف الصهيونية في الاستيلاء على فلسطين عن طريق غزو الارض وبناء الحصون البشرية العسكرية في النقاط الستراتيجية وفق خطة مرسومة . اما منطلقاتها النظرية والفكرية فتستند الى العنصرية الصهيونية والتعصب والتمييز ضد الآخرين ، وعزل الذات عن طريق منع وجود غير اليهود ، في المستعمرات ، ومقاطعة اليد العربية العاملة ، واضطهاد الآخرين وذلك بطرد الفلاحين العرب من اراضيهم، وبناء دولة هي اشبه بالمعسكر منها باي شيء آخر .

ويفرد المؤلف فصلا كاملا للتحدث عن الحياة داخل الكيبوتز . والحياة في الكيبوتز صعبة، فيها الكثير من التقشف ، كما تتصف بدرجة عالية من الجماعية. توزيع العمال في الكيبوتز يعتمد على مبدأ اعتبار رغبات الفرد من العوامل الثانوية ، والذي يحدد العمل هو حاجات وظروف الحياة اليومية . لا يوجد شيء اسمه « الحياة العائلية » ، كما ان المرأة تشكل عقدة اساسية في نظام الكيبوتز ، اذ انها سبب الاستغلالات ، وهي وراء المطالبة بالملكية الفردية والحياة الخاصة . وهي غير سعيدة بدورها رغم تحررها من الاعمال البيتية .

ثم يتحدث المؤلف عن العامل الاقتصادي في الكيبوتز ، فيوجز البحث في هذه النقطة ويكتفي بعرض سريع ، موجزه ان الخصائص البارزة لاقتصاد الكيبوتز القيام بالنشاطات الصناعية الى جانب النشاط الزراعي ، وهو الجانب الرئيسي في الكيبوتز . وهنا تكمن ناحية الضعف الاساسية في الكتاب، اذ لم يركز المؤلف على اهمية الكيبوتز من الناحية الاقتصادية بالنسبة لاسرائيل ، كما انه لم يتحدث عن مستقبل الكيبوتز بالنسبة لمستقبل اسرائيل الاقتصادي – ولم يورد ماذا استفادت اسرائيل من نظام الكيبوتز اقتصاديا .

في الفصل الثالث ، يتحدث المؤلف عن الكيبوتز كعامل عسكري ستراتيجي . ويتضح ان الحاجات الستراتيجية العسكرية وحدها تقرر الحاجة الى انشاء الكيبوتزات ومواقعها ، ولا سيما فيما يتعلق بالكيبوتزات التي تقع في جنوبي اسرائيل .

في الفصل الرابع يعالج المؤلف جانبا هاما من جوانب الكيبوتز ، وهو استغلال هذا النظام في سبيل الدعاية لا سرائيل. ففي البدء ، كانت الحركة الصهيونية تنسج الاساطير حول الكيبوتز، وتصورها على انها « انقى اشكال الديموقراطية »، وانها تجربة طوباوية ناجحة من حيث العدالة والمساواة. وكانت الكيبوتز الوسيلة الرئيسية لاجتذاب الشباب الصهيوني المتحمس الى فلسطين قبل سنة ١٩٤٨ . واليوم تشن الصهيونية حملة تركز فيها على دور الكيبوتز في تطوير الارض المقدسة ، بعد ان كانت مهملة مقفرة. واستطاعت اسرائيل ايضا التغلغل الى آسيا وافريقيا بواسطة الصفة الاشتراكية والصفة التقدمية اللتين تضفيهما على الكيبوتز .

وينتقل المؤلف الى الفصل الخامس ، فيترك العرض جانبا وينتقل الى النقد والتقييم. فالكيبوتز ليست تجربة رائدة للعالم ، ولا هي مثال للغير يحتذى به ، بل هي علامة تميز وتفرد خاص بالشعب اليهودي . ومعظم الذين درسوا تجربة الكيبوتز اجمعوا على انها تجربة غير صالحة للتصدير او التقليد.

اما بالنسبة « لاشتراكية » الكيبوتز . فينتقدها المؤلف ويقول بان الكيبوتز مؤسسة اقامتها حركة قومية عنصرية مرتبطة بالغرب وبالامبريالية العالمية . وهي اداة استعمار ووسيلة عدوان واغتصاب وتمارس التفرقة العنصرية (لا يوجد اي عضو غير يهودي في الكيبوتزات ؛ بل اكثر من ذلك ، هناك تفرقة تصيب اليهود الشرقيين) وتؤمن بالتفوق العنصري.

قيمة كتاب « الكيبوتز » الاساسية انه اول كتاب يعالج هذه التجربة الاسرائيلية المهمة، واهميته انه فتح الباب امام ضرورة الاهتمام بتجربة الكيبوتز . لكن هذه التجربة المعقدة المتشعبة التي تعتبر من اسس وجود اسرائيل، تحتاج الى دراسات اوسع واشمل واعمق . ويمكن اعتبار كتاب الاستاذ

كيالي مقدمة لدراسات عديدة حول الكيبوتز قد تظهر في المستقبل .

لم يسبق حتى اليوم ان صدرت باللغة العربية دراسات علمية دقيقة تتناول وضع الاحزاب الرئيسية التي توجه دفة اسرائيل . فدراسة حزب معين من الاحزاب الاسرائيلية يتطلب جهدا وبحثا ودقة . وهذه العقلية لم تكن متوفرة عند الذين تابعوا القضية الفلسطينية في الماضي وكتبوا عنها ، اذ لم يروا اهمية وجدوى في دراسة حزب من الاحزاب دراسة تفصيلية عميقة . لكن النهج العلمي الذي يؤمن به مركز الابحاث يقول بضرورة درس كل جزء، صغيرا كان ام كبيرا ، من اجزاء مجتمع ما ، لكي نفهم حقيقة هذا المجتمع وندرك ابعاده . ومتى فهمنا حقيقة المجتمع الاسرائيلي عن طريق الدراسات التفصيلية الجزئية ولمسنا مواطن القوة والضعف فيه، سهل علينا التصدي له ومحاربته .

تحقيقا لهذه الغاية صدرت عن مركز الابحاث دراستان حول حزبين من اهم الاحزاب الاسرائيلية: حيروت والماباي .

حزب حيروت

الكتاب الاول يركز فيه المؤلف، الاستاذ بسام ابو غزاله، على جذور حزب حيروت الارهابية، فيتحدث عن النشأة الاولى للحزب ، وعن الاب الروحي لهذا الحزب ، وهو جابوتنسكي (يهودي روسي) ، الذي عارض سياسة وايزمن في الاعتماد على صداقة بريطانيا لتحقيق مآرب الصهيونية ، وطالب بضرورة الاسراع في الهجرة والاعتماد بشكل رئيسي على وحدات عسكرية يهودية . وكان ذلك في العشرينات . وكان جابوتنسكي يعتبر وعد بلفور قانونا ملزما للحكومة البريطانية ، لا مجرد وعد يمكن الرجوع عنه . اما ارض فلسطين ، فيعتبرها ارضا « يهودية »، وكل من فيها من غير اليهود دخلاء لا حق لهم الا حق الاقلية فيها . وحين هب العرب للدفاع عن ارضهم الف جابوتنسكي فرقة الهاغاناه العسكرية لحماية المستعمرات من ثورة عرب فلسطين . ثم شعر جابوتنسكي بان دور الهاغاناه هو دور سلبي، فانشق مع جماعته وكون « الارغون تزفاي لئومي » التي افترض فيها ان تكون اكثر تمثيلا لرأيه المتطرف المنيف في العمل العسكري . وكان ذلك عام ١٩٣٧ .

بين فترة ١٩٤٣ و ١٩٤٨ ، قامت الارغون بعمليات ارهابية في فلسطين ، منها نسف فندق الملك داود الذي كان وكرا للاستخبارات البريطانية ، ثم مجزرة دير ياسين الشهيرة ، واحتلال يافا عام ١٩٤٨ .

وبعد قيام اسرائيل ، انصهر محاربو الارغون في الجيش الاسرائيلي ، بينما الف المدنيون في عام ١٩٤٨ حزب حيروت الذي طمح منذ اليوم الاول في الوصول الى مرتبة الحزب الحاكم. ويقف حزب حيروت في اقصى اليمين من الاحزاب الاسرائيلية، وهو ينادي على الصعيد الاقتصادي بنظام حر الى ابعد الحدود ، ويحارب الاشتراكية . اما على صعيد السياسة الخارجية ، فهو يرفض مبدأ الحياد ويحمل راية العداء للاتحاد السوفييتي ، وينادي جهرا بضم الاردن الى اسرائيل .

وبالاضافة الى الدراسة ، هناك ملحق هام هو تقرير حول اعمال العنف ، اصدرته وزارة المستعمرات في الحكومة البريطانية في تموز ١٩٤٦.

من مميزات الكتاب الرئيسية والهامة ، دقة المؤلف ، التي دفعته الى مراجعة ما لا يقل عن اربعين مرجعا اجنبيا من اجل وضع كتاب لا يتجاوز السبعين صفحة من الحجم الصغير . وان كان هناك من نقص في الدراسة، فهو ان المؤلف لم يدرس واقع الحزب اليوم بتفصيل اكثر ، كما درس ماضيه مثلا، ولم يدرس مستقبل الحزب وآراءه المتطرفة بالنسبة لاسرائيل .

الماباي

الكتاب الثاني عن حزب الماباي . وعلى عكس حيروت ، فان حزب الماباي كان على رأس جميع الحكومات الاسرائيلية التي تشكلت منذ عام ١٩٤٨ حتى اليوم (١٥ حكومة) ، كما انه احتكر اهم الوزارات (الخارجية والمالية والدفاع) طول هذه الفترة .

بعد ان يبحث الاستاذ العابد في التيارات العمالية في الحركة الصهيونية ، وفي نشأة الماباي وتطوره

وتنظيمه ، ينتقل الى ايديولوجيته حيث يقول : « ان الماباي حزب صهيوني اشتراكي في آن واحد. وهو يجمع بين القيم والمفاهيم الطبقية وبين القيم والمفاهيم القومية ، ويوحد بينها بشكل عضوي وثيق . والماباي هو اكثر الاحزاب الاسرائيلية تشددا في ضرورة تجميع اليهود في فلسطين ، الى درجة انه يؤمن بان اليهودي الذي يرفض المجيء الى اسرائيل يعلن ، بطريقة اخرى ، عن تخليه عن كونه يهوديا . وهذا الموقف هو قمة التعصب القومي . اشتراكية الماباي احلامية نفعية . ومسألة دمج الاشتراكية والقومية تذكرنا بالاحزاب الفاشستية التي كانت ايضا تؤمن بالاشتراكية وبالقومية في الوقت نفسه . اما فيما يتعلق بعلمانية الماباي ، فهي ايضا فريسة النزعة النفعية التي سيطرت على الحزب . لقد اضطر الماباي ان يضحي بكثير من آرائه العلمانية في سبيل كسب تأييد الاحزاب الدينية في الكنيست. ولعل وصف هالهرمان للماباي يعكس واقع الحزب الايديولوجي اليوم ، اذ يقول هالهرمان: الماباي صورة غريبة لحزب اشتراكي يقدم الجزر لحمار رأسمالي لانه يعتقد بان البلد يحتاج الى الاستثمارات بشدة » !

ينتقل المؤلف بعد ذلك الى الحديث عن الماباي والعمل السياسي منذ عام ١٩٤٨ حتى اليوم ، ويقول عن مواقف الحزب بالنسبة للسياسة الخارجية: « يتحدد الاطار العام لمفهوم الماباي للسياسة الخارجية على اساس احتياجات اسرائيل الدفاعية . ان اهم عامل يقرر ويوجه السياسة الاسرائيلية في الخارج هو ، بالنسبة الى الماباي ، البحث عن السلاح الضروري لها لتحقيق سياستها العدوانية . ولعل اهم منجزات الماباي ، على صعيد السياسة الخارجية، بالاضافة الى قيادتها التغلغل الاسرائيلي في افريقيا ، هو انه استطاع ان يتخلص من عقدة اضطهاد المانيا لليهود ويقيم معها علاقات صداقة وتعاون للكسب منها قدر الامكان ! » ثم يفرد المؤلف فصلا كاملا لانشقاق الماباي الذي وقع في اواخر عام ١٩٦٤ وادى الى انسحاب بن غوريون وجماعته بسبب قضية لافون ، وتأليف حزب رافي المتطرف الذي يدعو الى غارات انتقامية شديدة على الدول العربية .

بالاضافة الى الدراسة الرصينة الدقيقة عن الماباي ، فان الكتاب يحتوي على جداول هامة ، منها ما يتعلق بنتائج انتخابات الكنيست (١٩٤٩-١٩٦٥) وتوزيع الحقائب الوزارية ، ثم عمر الحكومات الاسرائيلية واسباب استقالتها .

« الدعاية الصهيونية »

تكمن اهمية كتاب « الدعاية الصهيونية » لحامد محمود في تقسيمه المفصل وتتبعه الدقيق لاصغر مكونات الدعاية الصهيونية وطرق مكافحتها .

في حديثه عن اساليب ووسائل الدعاية الصهيونية في الخارج ، يقول المؤلف ان الاساليب الرئيسية المتبعة تقوم على : (١) مخاطبة مراكز القوة في المجتمع الذي تتوجه نحوه ، وبذل الجهود المتواصلة للتأثير عليها وكسبها الى صفها. (٢) عدم فتح موضوع قضية فلسطين الا للرد على ما يمكن ان تطرحه الدعاية العربية. (٣) مخاطبة الرأي العام من خلال مداخل او مفاتيح معينة تسهل لهم الاستجابة لدعاياتهم. (٤) محاولة اظهار التجربة الاسرائيلية على انها مثيل لتجارب عديدة اخرى وعرض هذه التجربة على دول اخرى. (٥) اثارة الحملات الدعائية وتكرارها لتحقيق هدف معين ، وتحويل الاذهان عن سلوك يدين اسرائيل (اثارة موضوع الاضطهاد العنصري لليهود مثلا) .

ويقول المؤلف ان الاتحاد العمالي العام في اسرائيل هو من اهم الوسائل والاجهزة التي تستخدمها اسرائيل في بث دعاياتها ، سواء في الداخل او في الخارج ، والتغلغل عن طريقه الى الحركة العمالية الدولية عامة، والحركة العمالية الامريكية بصورة خاصة .

ويقترح المؤلف في الباب الثالث من الكتاب ، المخصص لوسائل مكافحة الدعاية الصهيونية ، ان تستند الدعاية العربية في الخارج الى تنظيمات وتشكيلات متماسكة اهمها : جمعيات الصداقة العربية في الخارج ، والجاليات العربية المغتربة ، والطلبة العرب الذين يدرسون في الخارج ، والمؤتمرات العمالية الدولية .

ويعترف المؤلف بوجود مشكلات عديدة تواجه الدعاية العربية في الخارج ، ثم ينهي الكتاب باقتراح لتأليف جهاز اعلام عربي يصحح عيوب مشروع جهاز الاعلام العربي الذي اقترح تأليفه

سنة ١٩٥٩ .

الميزة الرئيسية للكتاب انمؤلفه غير معقد ابدا من جراء قوة الدعاية الصهيونية في العالم ، بل هو يحللها ويدرسها بالتفصيل وبجرأة تامة دون التقليل من اهميتها . ويمكن اعتباره من اهم المراجع العربية الحديثة في قضية الدعاية الصهيونية .

كتب وثائقية

وننتقل الآن الى نوع آخر من الكتب الفلسطينية التي صدرت مؤخرا واتسمت بنفس طابع المنهجية العلمية التي تحدثنا عنها . وهذه الكتب «وثائقية» ، من نوع المراجع الشاملة الواسعة . صدر منها ثلاثة كتب : كتابان عن مؤسسة الدراسات الفلسطينية ، وهما « الكتاب السنوي للقضية الفلسطينية لعام ١٩٦٤ » و« الوثائق الفلسطينية لعام ١٩٦٥ » ، وكتاب عن مركز الابحاث هو عبارة عن الجزء الاول من « اليوميات الفلسطينية » ويضم نصف سنة من هذه اليوميات (من ١ - ١ - ١٩٦٥ الى ٣٠ - ٦ - ١٩٦٥) .

قسم « الكتاب السنوي » الى سبعة اقسام ، هي : قضية فلسطين في المجال العربي ، الصهيونية العالمية ، الوضع السياسي لاسرائيل ، علاقات اسرائيل بدول الشرق والغرب ، قضية فلسطين في آسيا وافريقيا ، فلسطين في الامم المتحدة ، الاقتصاد الاسرائيلي بجميع اوجهه.

والكتاب فيه حشد كبير من المعلومات والمصادر والارقام ، ولعل القسم المتعلق بالاقتصاد الاسرائيلي من اهم اقسام الكتاب (يتضمن ٢٧٠ صفحة من اصل ٥٢٠) . وهو يعالج كل اوجه ونشاطات وطاقات هذا الاقتصاد ، كما يتضمن ٦٢ جدولا اساسيا مرقما .

الا ان هنالك ثلاثة مواضيع هامة ، هي : اليهودية العالمية وحوادث خطوط الهدنة وشؤون اللاجئين ، كان ينبغي اعطاؤها دورا اكبر في الكتاب. كما ان الكتاب يفتقر الى فهرس مفصل (غير جدول المحتويات) يساعد الباحث على تسهيل مهمته .

اما كتاب « الوثائق الفلسطينية » فيتضمن ٢٣١ وثيقة. الا ان النقص الاساسي فيه هو ، باعتراف محرره الدكتور منذر عنبتاوي ، « ان جميع الوثائق المدونة قاصرة على ماصدر منها في المشرق العربي». واذا كانت الغاية الاساسية في نشر هذه الوثائق هي « في ان توضع تحت تصرف الباحث العربي جميع المستندات » ، فاننا لا نجد في الكتاب التصريحات والخطب الصادرة عن رسميين اسرائيليين ، والمرتبطة مباشرة بالقضية الفلسطينية . وعسى ان يملأ هذا النقص في وثائق عام ١٩٦٦ .

كما ان هناك نقصا آخر في كتاب « الوثائق » ، وهو خلوه من الفهارس (غير فهرس المحتويات) ، فهارس الاسماء والبلدان والمنظمات والمواضيع الوارد ذكرها في الكتاب . وهذا النوع من الفهارس اصبح اليوم من ضروريات اي كتاب علمي شامل.

اما « اليوميات الفلسطينية » فهي اكمل واشمل وادق . وهي تضم وصفا موجزا لما يحصل بشأن القضية ، او ما يقال عنها ، يوما بعد يوم ؛ وتضم بالاضافة الى هذا انباء واقوالا قد لا تظهر صلتها بالقضية واضحة او اكيدة او مباشرة الا فيما بعد .

ومصادر « اليوميات » عبارة عن مقتطفات من نيف وستين صحيفة او مجلة (تصدر عن سبع بلدان عربية وامريكا وبريطانيا وفرنسا والمانيا الغربية والصين الشعبية وروسيا واسرائيل) ومن النشرات الصادرة عن عدد من وكالات الانباء . وهكذا تكون مصادر « اليوميات » اكمل واوسع من مصادر « الوثائق » .

« واليوميات » تضم ايضا ثلاثة فهارس مسهبة تبلغ بمجموع صفحاتها مائة صفحة (من اصل ٤١٣ صفحة) . ولهذه الفهارس اهمية كبرى في مساعدة الباحث وتسهيل اموره .

اهمية الكتب السبعة التي قدمنا صورة عنها ، هي انها تشكل الخطوة الاولى في طريق علم النكبة ، هذه الطريق التي انتظرنا ثمانية عشر عاما قبل ان ندرك انها ضرورية للعودة .

عبد الكريم ابو النصر

« الافغاني وعبده » ، بقلم ايلي قضوري . لندن ، فرانك كاس ، ١٩٦٦
« الاصلاح الاسلامي » ، بقلم ملكوم كير . مطبعة جامعة كاليفورينا ، ١٩٦٦
« ثلاثة مصلحين » ، بقلم خلدون ساطع الحصري . بيروت ، مكتبة خياط ، ١٩٦٦

ثلاثة كتب لثلاثة مؤلفين من ثلاثة اقطار في موضوع واحد . ولكن الموضوع هو وجه الشبه الوحيد فيما بينها . والموضوع هو حركة الاصلاح الديني في الاسلام، التي جاءت في اواخر القرن التاسع عشر والتي قادها السيد جمال الدين الافغاني والشيخ محمد عبده . ان اكثر الباحثين في هذا الموضوع ، عربا كانوا ام اجانب ، يعتبرون هذه الحركة بداية لنهضة ثقافية وسياسية جديدة في العالم الاسلامي بصورة عامة والعالم العربي بصورة خاصة . ومما لا شك فيه ان الوعي القومي والسياسي عند العرب قد تأثر تأثيرا مباشرا بهذه الحركة، كما وان رجالها، امثال الافغاني وعبده واديب اسحق ورشيد رضا وعبد الله النديم والكواكبي ، يمثلون الرعيل الاول من رجال القومية العربية كحركة سياسية، بالرغم من عدم وضوح هذه الفكرة عندهم وذلك بسبب ايمانهم العميق بمبدأ الامة الاسلامية كوحدة واحدة غير قابلة للتفكك والانفصال .

ولكن الاستاذ ايلي قضوري، في كتابه «الافغاني وعبده » ، يبدأ بنبذ كل ما هو متعارف عليه عند الباحثين والمؤرخين ، ليقول باننا اذا وضعنا جميع كتابات الافغاني وعبده وجميع المؤلفات التي كتبها عنهما معاصروهما او تلامذتهما تحت الميكرسكوب، وجدنا ان حقيقة هاتين الشخصيتين في هذه الكتب تعاكس ما كتباه هما عن نفسيهما . لكن المؤسف ان المنظار الذي يلجأ اليه هذا الاستاذ الجامعي ليس منظار من يعتمد طريقة البحث العلمي النزيه، وانما هو منظار الاستاذ قضوري الخاص ، الذي وضع هو اصوله وقواعده وراح يحكم على زعماء الفكر الحديث في العالم العربي حسب هذه القواعد والاصول التي استنبها وكما طاب له . فان المؤلف يتهم سائر الذين كتبوا عن الافغاني او عبده - بمن فيهم الاستاذ ادوارد بروان والشيخ محمد رشيد رضا - بالتحزب لهذين الرجلين والاعتراف باهمية مساهمتهما في عملية ايقاظ المسلمين وتنبيههم الى خطورة السيطرة الاوربية. ولكن الغريب ان المؤلف يعرض نفسه لذات الاتهام، عندما يبدأ برفض بعض المصادر المعروفة «لتحزبها» او لعدم موافقتها لآرائه هو - ومن ثم بالاعتماد عليها اذا ما كانت موافقة لاستنتاجاته (كما يفعل في ما كتبه الشيخ محمد رضا او الشيخ المغربي) . والاستاذ قضوري لا يكتفي بان يتهم الافغاني وعبده بالكذب والتلفيق . وانما هو يعمم هذا الاتهام على سائر زعماء هذه الحركة . فيذكر مثلا ان الكواكبي لم يكن معروفا في بلدته حلب ، ويقرر على هذا الاساس عدم اهمية مساهمة الكواكبي : اذ ان الرجل غير المعروف في بلدته لا يستطيع ان يؤثر على افكار وكتابات الآخرين في خارجها . مع العلم بان الكواكبي (كما يشير الى ذلك الاستاذ الحصري في كتابه الحالي) كان قد هرب من سوريا ومن الاضطهاد العثماني الى مركز الحركة الفكرية، القاهرة ، حيث نشر جميع مؤلفاته . فلا غرابة اذا تنكر اهل حلب ، وهم لا يزالون تحت الحكم العثماني ، للكواكبي وامثاله .

المهم في هذا الكتاب ليس الكواكبي ، وانما معالجة المؤلف لحياة الافغاني وعبده وكتاباتهما واعمالهما. فهو يبدأ بالقول بان مجرد دراسة ما كتبه الافغاني وعبده غير كاف ، ولذا يجب دراسة اعمالهما لتفهم شخصيتهما . ويزيد بان الاعمال التي قاما بها لم تكن متعلقة بما كتبا او كتب عنهما. وبهذه الطريقة يتوصل المؤلف ، بالاعتماد على بعض الوثائق الرسمية التي كتبت عنهما ، الى ان الافغاني كان يمثل المصالح الروسية في افغانستان (او بالاحرى كان عميلا روسيا) ، ثم الى انه عند اصداره مجلة «العروة الوثقى» بمساعدة الشيخ محمد عبده في باريس كان يعمل لمصالح

الفرنسيين (اي كان عميلا فرنسيا) ، ثم الى انه بعد قيام حركة المهدي في السودان عرض خدماته على الحكومة الانكليزية (اي انه كان يود ان يكون عميلا للانكليز) ! ولا يكتفي الاستاذ قضوري بهذه القائمة ، بل يضيف اليها بان هناك احتمالا كبيرا بان الافغاني كان قد اشتغل كعميل لملك الافغان ، ثم لشاه ايران ، ثم للسلطان عبدالعزيز ، ثم لرياض باشا في مصر ، ثم للسلطان عبد الحميد !

ويكتب المؤلف عن علاقة الشيخ محمد عبده بالافغاني ، فيقول بانها كانت علاقة غريبة ومشبوهة. ويتهم الشيخ محمد عبده بالتبعية العمياء في بداية معرفته بالسيد الافغاني ، ثم بالثورة ونكران كل تعاليم استاذه بعد فشل الثورة العرابية في مصر . بل، والانكر من هذا كله ، هو اتهام المؤلف للافغاني وعبده بالالحاد : وذلك لثورتهما على الارثوذكسية العثمانية في الدين وعلى جمود وتفسخ علماء الدين تحت الحكم العثماني . والجدير بالذكر ان هذا الاتهام كان قد وجهه للافغاني من قبل شيخ الاسلام العثماني وفي النصف الثاني للقرن التاسع عشر عندما كانت كل فكرة جديدة تعتبر بدعة يجب محاربتها . والغريب ان يعتبر المؤلف فكرة التجديد ، وفي النصف الثاني من القرن العشرين ، الحادا . فان سائر المجددين ، في اي دين كان ، منذ المصلح الديني لوثر في اوربا حتى يومنا هذا ، معرضون لتهمة الالحاد - وخصوصا في الاسلام منذ ايام الشيعة والخوارج والمعتزلة . بل ، واهم من كل هذا ، ان اهمية الافغاني وعبده بالنسبة للفكر الديني والسياسي الحديث ليست في الاعمال الشخصية التي قاما بها (كما يزعم المؤلف) وانما في كتاباتهما ومحاربتهما للجحود الفكري الذي كان مهيمنا على الفكر العربي . وان اهمية الافغاني وعبده يجب ان ينظر اليها لا بواسطة منظار الاستاذ قضوري (الذي لا بد من التساؤل عن هدفه) ، وانما في مساهمتهما في الحركة الفكرية وتأثيرهما على النهضة الثقافية والوعي السياسي الذي كانا هما اول رواده .

ولا يمكن وصف مساهمة الشيخ محمد عبده في تنوير المسلمين بتفسيراته الحديثة للقرآن والسنة بانها مجرد « فقه سطحي » كما يسميها المؤلف - ولكن بدراسة النتاج الديني والقانوني الذي جاء كنتيجة مباشرة لكتابات وافكار الشيخ محمد عبده . وهذا هو الموضوع الذي يكتب فيه الاستاذ ملكوم كير في كتابه « الاصلاح الاسلامي » . بعد ان يناقش المؤلف القواعد التي اعتمد عليها رجال الفقه والتشريع في الاسلام ، يشير الى التناقض الذي حصل بين المثالية في التشريع وحقيقة العالم الاسلامي او الاسس التي كانت تقوم عليها السلطة الحكومية، وخصوصا محاولات الامام الغزالي وابن جماعة لقبول اية سلطة مهما كانت ظالمة ، وذلك للحفاظ على وحدة واستقلال الامة الاسلامية . ثم يشير الى المحاولات التي قام بها الشيخ محمد عبده لنبذ كل ما سماه بالبدع او الشوائب التي تعرض لها الدين الاسلامي في القرون الوسطى بعد تسلط المغول والاتراك واستيلائهما على الحكم . فان الشيخ عبده كان يود الرجوع بالاسلام - وليس بالامة الاسلامية - الى سنيه الاولى ، اي الى العهد الذي كان فيه الدين الاسلامي نقيا من كل الشوائب التي دخلت عليه في عهوده المتأخرة . ولذا سميت هذه الحركة بالسلفية، اي الرجوع الى السلف الصالح . ان غرض الشيخ محمد عبده من هذا كله هو دعواه الى تبني بعض جوانب الحضارة الاوربية التي كانت ستؤدي الى تقوية الامة الاسلامية حتى يمكنها ان تواجه الغرب ومحاولاته للتسلط عليها . وقد حاول الشيخ محمد عبده تبيان ان الاسلام لا يعارض اسس العلم والمعرفة الحديثة وانه يوافق عليها كل الموافقة . وقد ادى اهتمامه بالتعليم وبتكوين قواعد اخلاقية جديدة لمجتمع جديد ، الى التفريق بين الاسس المنزلة في الاسلام والتي لا يمكن تغييرها وبين القواعد التي يمكن ان تغير بقصد الضرورة والمصلحة العامة . ولكن عدم وضوح هذه القاعدة ادى الى ظهور مدرستين مختلفتين كل الاختلاف في تفسير مبادىء الشيخ محمد عبده وفي التشريع العمومي . المدرسة الاولى ، التي قادها الشيخ محمد رشيد رضا، التزمت بالقواعد غير القابلة للتغيير كاساس لها ، وهذه هي المدرسة التي يبحث فيها المؤلف في كتابه هذا . (وكانت المدرسة الثانية التي اتخذت قواعد التغيير كضرورة اجتماعية ، تحت اشراف لطفي السيد وقاسم امين) . فان الشيخ رشيد رضا حاول تفسير

الغموض عند عبده ، وذلك بوضع قواعد اساسية وسياسية ومشابهة للمنظمات السياسية الاوربية ومنبثقة عن الدين الحنيف . فقد اتخذ مثلا مبدأ الاجماع في الاسلام كاساس للديمقراطية ، وقاعدة انتخاب الحاكم من قبل اهل العقد والحل كمبدأ للحكم البرلماني .ولكن المؤلف يشير الى ان الشيخ رشيد رضا لم ينجح في وضع هذه التفسيرات على اسس بينة ومتينة ، كما انه يشير الى فشله في التفريق بين السلطة الروحية والدنيوية للحاكم المسلم ، والى معارضته الشديدة لكتاب علي عبد الرزاق «الاسلام واصول الحكم » الذي دعا فيه الى الفصل بين السلطتين. ويناقش المؤلف قواعد التشريع القانوني عند الشيخ رشيد رضا الذي وضعه على مبدأ المصلحة العامة ، ويشير الى التناقض بين الاحكام المنزلة في القرآن وبين هذه القاعدة . ويقول ان الشيخ محمد رشيد رضا اخذ يعتمد على التقليد اكثر من التجديد بعد رواج افكار المشرعين المحدثين امثال عبد الرزاق واحمد صفوت .

وبالرغم من كل الغموض الذي جعل افكار الشيخ محمد عبده قابلة لتفسيرات مختلفة ومتضاربة، فان هذا الكتاب خير رد على آراء الاستاذ قضوري في المساهمة التي قدمها الشيخ محمد عبده . فان الاستاذ كير يبرهن ان محاولات الشيخ الامام في التجديد لم تذهب سدى ، وان تأثيره على الفكر الحديث وعلى التشريع الجديد ما زال ملحوظا . واما كتاب الاستاذ خلدون الحصري « ثلاثة مصلحين » فانه ليس اكثر من محاولة للبرهنة على ان حركة القومية العربية كحركة سياسية ، وليس حركة الاصلاح الديني كما هو متفق عليه ، كانت حركة عامة شملت العالم العربي بارجائه المختلفة ؛ فهو يأخذ موضوعا لبحثه شخصية من مصر (الطهطاوي) وثانية من المغرب (خير الدين التونسي) وثالثة من سوريا (الشيخ عبد الرحمن الكواكبي) . وهذا الكتاب مجرد عرض لآراء هذه الشخصيات الثلاث التي سجلوها في مؤلفاتهم الخاصة ، وخصوصا فيما يتعلق بالطهطاوي والتونسي . اما فيما يخص الكواكبي فان معالجة الاستاذ الحصري لآرائه هي اهم ما في كتابه، لان الكواكبي كان قد عبر عن تلك الآراء كعربي ـ

ولذا فمن السهل ان يعتبر من رواد القومية العربية الاول ، ولكن لا يمكن اعتبار الطهطاوي او التونسي كذلك : وذلك لسيطرة فكرة المصرية ، او مصر للمصريين ، على الاول ، وفكرة الامة الاسلامية ، اي الجامعة الاسلامية ، على الثاني .

هناك ملاحظة واحدة : تختص باشارة المؤلف لما كتبته السيدة سلفي حايم عن الكواكبي وترجمته لبعض المؤلفات الاوربية في السياسة او تأثره بها . فقد كان بودي ان يرد الاستاذ الحصري على هذه الاشارة باكثر مما فعل ويضحد افتراضات الكاتبة (زوجة ايلي قضوري الذي تحدثنا عن كتابه قبل قليل) في هذا الموضوع ، وخصوصا فيما يتعلق بكتاب الفيري عن الاستبداد . وملاحظة اخرى: ان فكرة الخلافة العربية كانت منتشرة عند العرب قبل وصول بلنط الى هذا الجزء من العالم، وخصوصا بعد احتلال ابراهيم باشا لسوريا ؛ ولذا فان فكرة الخلافة العربية لم تكن بالدعوة الجديدة عند العرب، ولم يختلق بلنط هذه الفكرة : فمنذ مجيئه الى العالم العربي وجد ان اكثر المجالس تتحدث بهذه الفكرة، وهو في كتابه « مستقبل الاسلام » لم يسجل اكثر مما كان يسمعه من الناس . ويجب القول ايضا ان مجرد الاشارة الى مقالات الكواكبي في جريدة «المؤيد» وانسجامها مع كتاب « طبائع الاستبداد » غير كاف . واخيرا فان هذا الكتاب كان يمكن ان يكتب بلغة اجزل وامتن من اللغة التي كتب بها ، فان مثل هذه الكتب لا تخدم مصلحة القومية العربية ولا القضايا العربية عند القارىء الاجنبي .

محمد البسام

" الموارد الاقتصادية في الوطن العربي "

بقلم محمد صبحي عبد الحكيم ويوسف خليل يوسف وحليم ابراهيم جريس واجلال السباعي . القاهرة ،دار القلم ، ١٩٦٦

من اول الاهداف التي تنادي بها القومية العربية، تحقيق ما اصطلح عليه باسم « الوحدة العربية » . غير ان اي باحث عربي جدي يشعر بالدهشة عندما يجد هذا الهدف العزيز هدفا عاما غير واضح المعالم والحدود ، ويقر ما جاء في مقدمة هذا الكتاب من ان الوقت قد حان لكي «يطرق الباحثون النواحي المادية للوحدة ، وذلك ان اذهان العرب في كل مكان قد تهيأت للضرورة السياسية للوحدة ، اما الضرورة الاقتصادية لها ، فما زال العرب بحاجة الى ادراكها » .

من هنا فان قيمة هذا الكتاب تزيد عن كونه مجرد «جغرافيا اقتصادية » للبلاد العربية ،وضعت على اساس اقليمي . اذ انه واع تماما للكثير من المفارقات الاقتصادية التي يعاني منها الوطن العربي بمجموعه ،«فالاقتصاد العربي يسير نحو سيرا عشوائيا، بل لقد اتجه في بعض الحالات نحو التنافس ولم يوجه نحو التكامل ، فسار الانتاج في خطوط اقرب الى التوازي منها الى الترابط . وفضلا عن ذلك فليس بين الدول العربية دولة واحدة تملك بمفردها من المواد والامكانات وتكامل عناصر الانتاج بحدودها الراهنة ، ما يمكنها من ان تحقق لسكانها رخاء حقيقيا مستمرا ، او يجعل منها قوة اقتصادية كبيرة على الصعيد العالمي » .

وقد قسم الكتاب الى خمسة ابواب : اولها الانتاج الزراعي في الوطن العربي ، وثانيها الموارد النباتية والحيوانية والمائية ، وثالثها موارد الثروة المعدنية،ورابعها الصناعة في الوطن العربي ،واخيرا التكامل في الوطن العربي .

ولا شك ان السادة المؤلفين الاجلاء ، على ضخامة الجهد الذي بذلوه في هذا الكتاب (٥٣٨ صفحة)، واجهوا عددا من المشاكل الرئيسية الانتقائية ، التي يواجهها اي بحث في الجغرافيا الاقتصادية . اذ ان هذا الحقل من حقول المعرفة ، نظرا لتوسطه بين علم الاقتصاد والجغرافيا الطبيعية ، يجد احيانا صعوبة فيما ينتقيه وما يتركه في عمليته الانتقائية هذه . فالكتاب الذي بين ايدينا ، مثلا ، لم يعالج موضوع السكان ، وتراكيبهم ، وتوزيعهم ، وانواع المهارات بينهم ، ومستويات معيشتهم ، الخ ، رغم ان الصورة لا تكتمل بدون هذا البحث . وما ذلك فقط لان الانسان هو الغاية والوسيلة في الجهد الاقتصادي ، بل وايضا لان تفاعل الموارد والسكان هو الاساس في اي صورة اقتصادية ، وهو بالنسبة للوطن العربي من اهم المفارقات التي تشكل دعما قويا لدعوة « التكامل » و « التوحيد » ، التي تصبح حينئذ في المصطلح الاقتصادي دعوة « ترشيد » . هنالك اشارات عابرة الى بعض النواحي السكانية في مجال ابحاث انواع الانتاج المختلفة ، غير اننا نعتقد ان معالجتها في فصل واحد ربما كانت افيد في اكمال الصورة وابراز المعاني التي قصدها المؤلفون الاجلاء .

كذلك ، فمع اقرارنا بان النهج المتبع في مثل هذا البحث لا يتناول توزيع مورد اقتصادي هام هو « رأس المال » ، فان ظروف الوطن العربي الخاصة ربما كانت تتطلب بحثا في هذا الموضوع ، اذ ان التوزيع الحالي لرؤوس الاموال في الوطن العربي من اوضح مظاهر « التشويه » في البنيان العربي الاقتصادي الآن .

غير ان لهذا النهج من البحث مشكلة اخرى غير المشكلة المتقدمة ، وهي ان الموارد تتفاعل تفاعلا حركيا (ديناميا) مع العلم . فالبحث الذي يبدأ من نقطة الموارد يبدو غالبا وكأنه بحث راكدي (ستاتيك) . ان امكانيات تطوير الاقتصادات العربية من خلال الثورات التقنولوجية ربما تفوق امكانيات التطوير من خلال مجرد النموذج الاقتصادي المعهود : نموذج الاستثمارات الروتينية . من هنا ، مثلا ، امكانية قفزة صناعية ثورية تنشأ في البلاد

العربية - اغنى بلادالعالم بالبترول والغاز الطبيعي - حول جملة الصناعات البترو - كيماوية المنوعة التي تنتج اشياء تتراوح بين المنتجات الصلنة المرنة الشبيهة الصفات بالفولاذ (والقادرة في المستقبل على ان تحل مكانه) و صناعات الخيوط واللدائن بانواعها (ومنها ما يقوم مقام الجلود ، ومنها ما يقوم مقام الاخشاب) والزيوت والمبيدات والدهانات . وان معالجة الصناعات الكيماوية في الكتاب (ص ٤٧٢-٤٩٢) لا تفي ، فيما نعتقد ، بابراز هذا الافق الذي يلوح للعرب ، والذي لم يتبينوا اهميته بعد .

وبالاضافة الى هذه العناصر ، فاننا نلحظ - في جانب المقومات الطبيعية - فراغا ، اذ نعتقد انه ربما كان من الافضل التقديم للفصول الزراعية والنباتية والحيوانية ببحث عام في مصادر المياه وكمياتها ، لان هذه المصادر المائية تشكل بالنسبة للوضع التقنولوجي الراهن ، حدا من اهم حدود الامكان الزراعي ، كما ان تنميتها من اهم مجالات تنمية الآفاق الزراعية - وذلك كله ريثما تحدث ثورة تقنولوجية اما في مجال تحلية مياه البحر ، او في مجال التحكم بالرياح والامطار او كليهما .

غير ان هذه النقاط هي مما يمكن ان تختلف فيه الآراء حول ما يجب ان ينتقى وما يمكن اهماله .

فيما خص المسائل التي انتقاها المؤلفون وبحثوها، فاننا نلمس جدية في الدراسة والبحث ، واستقصاء واسعا، والماما كبيرا بالحقائق، العام منها والتفصيلي، وجهدا بذل بعناية وبصبر .

ولا شك ان السادة المؤلفين قد استحقوا ثناء القارىء العربي الخالص ، في ان وضعوا بين يديه هذه المجموعة الواسعة ، الممحصة ، من المعلومات الاساسية عن وطنه . ولسنا نبالغ اذا قلنا ان هذا الكتاب - بروحه القومية ، وبروحه العلمية ، وبمعلوماته - من اجل ما اخرجت المطابع العربية للقارىء العربي .

برهان الدجاني

نزار قباني وأهل الكهف

« الرسم بالكلمات » ، بقلم نزار قباني . منشورات نزار قباني ، بيروت ١٩٦٦

بفرشاة خبرنا كل شعرة فيها من قبل ، يرسم لنا نزار قباني في مجموعته الجديدة ما يقارب الاربعين لوحة من الادب الكشميري ، لو حوكمت بمنطق الحرس الاحمر او مجتمع الكفاية والعدل ، مثلا ، لكان جزاء كاتبها في ادنى الاحتمالات عصابة بيضاء على عينيه في ساحة المطبعة التي انتجتها . وفيما عدا ذلك فان شاعريته تهب كاسماك القرش في وجه اي مغامر يتخطى مياهه الاقليمية ، ان كان بدافع النزهة او بدافع التحدي. ومع ذلك فالمغامرة، عدا عن كونها ضرورية ضرورة نزار للشعر العربي ، فهي تكتسب اهمية خاصة باعتبار ان « الرسم بالكلمات » ليست المجموعة الاولى ، او الثانية ، او الثالثة للشاعر ، ولكنها الاخيرة حتى الآن من سلسلة ينتظرها القراء والمطربون والملحنون انتظار المن والسلوى .

وانا ، بالطبع ، لن اتناولها كمطرب او ملحن . بل كقارىء اغمض عينيه وهز رأسه طويلا من الصفحة الاولى ، لا من نشوة عابرة مفروغ منها ، بل دهشة من ان هذا الشاعر الذي اختص بشعر المرأة اختصاص الدكتور باستور بمرض السل، قد ظهرت عليه بوادر المرض والاعياء حتى في القصائد التي رشحتها عناوينها للنجاة والمقاومة . منذ القصيدة الاولى حتى الاخيرة يشعر القارىء بانه حتى نزار قباني يمكن ان يتعلثم على منابره ، ويتعثر ويرتبك في مسالكه . من السطر الاول حتى السطر الاخير يشعر القارىء بان وراء كل قصيدة بؤبؤا جاحظا في الادراج القديمة والمفكرات القديمة بحثا عن كلمة واحدة جديدة . فالفم ان لم يكن ثمرة كرز فهو ثمرة خوخ او تفاح . والشعر اما « سنابل قمح قبل الحصاد » او « سنابل قمح بعد الحصاد » . والمرأة ، المرأة دائما وابدا مستنفرة امام خزانتها . والحبيب دائما وابدا يعود حبيبته، لينسى عندها « معطفه ولفحته » - حتى ولو كانت الزيارة في منتصف آب او تموز .

قصيدة واحدة تشذ في مضمونها عن كل هذا الهراء الاخلاقي ، وترفع الشاعر من مأزق الالفاظ الطنانة والغزل التاريخي لتقذفه في مأزق ادهى وامر . والقصيدة هي « ثمن قصائدي » . فنزار عاتب على وطنه لانه يضطهده ، ناقم على شعبه لانه لم يرتفع الى مستوى شعره . ولذلك فهو يطالب ، وبالحاح ، بثمن قصائده . وهو لا يطالب الموزع او الناشر الفاحشي الثراء ، كما يتبادر الى الذهن ، بل يطالب وطنه بالذات مقابل ما اعطاه من قلبه وما نفحه من روحه ودمه :

« اعطيت هذا الشرق من قصائدي
علقت في سمائه النجوم والجواهرا
ملأت يا حبيبتي بحبه الدفاترا
ورغم ما كتبته
ورغم ما نشرته
ترفضني المدينة الكئيبة
تلك التي سماؤها لا تعرف المطر
وخبزها اليومي حقد وضجر
ترفضني المدينة الرهيبة
لانني بالشعر يا حبيبة
غيرت تاريخ القمر »

مما لا جدال فيه ان القراء يقفون صفا واحدا مع الشاعر في محنته ، ولن يهدأ لهم بال ما لم يقفوا على الاسباب الكامنة وراء رفض المدينة الرهيبة ذات العلاقة لشاعرها الكبير المضطهد. وعلى افتراض ان جميع الترتيبات اللازمة لمعرفة رأيها قد اتخذت ، وتنادى اهلوها من بيوتهم وحقولهم ومساجدهم ومستشفياتهم ، واجتمعوا في ساحة المدينة يتقدمهم وجهاؤها واعيانها ليقرروا موقفهم النهائي من شاعر غير لهم وجه القمر وهم لا يعلمون ، فلا بد والحالة هذه من ان يطالبوا بالاطلاع على موجز عن حياة هذا الشاعر ونضاله من اجلهم . ومن حسن الحظ ان الشاعر يوفر لنا عناء البحث والتنقيب عما يريدون . فهو يقول بكل صراحة :

« لا تطلبي مني حساب حياتي
ان الحديث يطول يا مولاتي
. . . . .
لم يبقَ نهد ابيض او اسود
الا زرعت بارضه راياتي
لم تبقَ زاوية بجسم جميلة
الا ومرت فوقه عرباتي
فصّلت من جسم النساء عباءة
وبنيت اهراما من الحلمات »

فهل يريد الشاعر ، مقابل هذا التاريخ المشرف ، ان ينصبوا له تمثالا على ذرى ميسلون ؟ او ان يدرجوا قصائده في برامج التنمية ؟ نعم واكثر ، سوف تجيب تلك الميليشيا الغرامية التي دربها نزار منذ الاستقلال حتى الآن بالمشط وزجاجة العطر ، لان المدينة حسب تقديرهم لم تفهم شعر الشاعر وابعاده الفكرية :

« فالشعر لا يقرأ في بلادنا لذاته
لجرسه لعمقه
او محتوى لفظاته »

واذا ما سألت امرأة جليلة من الحضور ، وهي تداعب شعر حفيدتها : مثلا ، مثلا يا بني ؟ فان تلك الميليشيا الغرامية ستجيبها على الفور : مثلا ، هذه القصيدة :

« ضاجعي من شئت ان تضاجعي
ومارسي الحب على ارصفة الشوارع
نامي مع الحوذي واللوطي
والاسكاف والمزارع
نامي مع الملوك واللصوص
نامي مع النساء لا فرق
مع الريح والزوابع
فلن تكوني امرأة
الا معي
الا معي »

اثنان لا تجوز معهما الشكوى من عدم (او سوء ، او استحالة) فهم الجماهير لما يكتبان : احسان عبد القدوس ونزار قباني . ما من شاعر ، حيا كان او ميتا ، احبه وطنه ويحتله مجتمعه كنزار قباني . انه الشاعر الوحيد الذي يقرؤونه في الغرف والصالونات والشرفات . في بطون الارائك وعلى ظهور اليخوت . او بالاحرى ، في كل مكان ـ ما عدا « بعض الامكنة القذرة والمناسبات البغيضة » . في السجون ، مثلا ، لا يقرؤون نزار قباني . في ايام الرعب واليأس والجنون الوطني لا يقرؤون نزار قباني . بل يكظمون

غيظهم ويتمنون لو انهم لم يعرفوه من قبل . لانه يقف ، شاء ام ابى ، على الضفة الاخرى من النهر . هناك ، في الصالونات وحول المدافىء ، بعيدا عنهم بعد الشط عن السكين ، والقميص المنشى عن القميص المبقع بالدم ، يقف عنادا او مكابرة او عجزا ـ ضد الجياع والعطاش والمحتضرين والمنفيين ، في الاماكن الاكثر ازدحاما في هذه الاصقاع المشينة ، والتي تجعل من حملة «الاتوغرافات» شيئا مقززا وضد الانسانية . تلك الامكنة التي لن يبلغها نزار قباني وجحافله المعطرة ، على جسر من الامشاط واقلام الحمرة ، لان الطريق الى الحرية لا يجتازه الا الحفاة .

نعم ، سنكف عن قراءة نزار قباني ، ما دام يقف على الضفة الاخرى من النهر . يتفرج على الحرية وهي تغرق دون ان يرتعش له دفتر او اصبع . وسيظل متفرجا حتى الشيخوخة ، ما دام يخشى البلل . ما دام يفتقر الى عنصر الذعر والاشمئزاز والرغبة في الخوض الى ما فوق الركبتين في كل ما تأنف منه الفئة القارئة لشعره والقارضة لكتبه واوراقه . واذا كان اقبال هذه الفئة على شعره يبعث في نفسه الاطمئنان ، فنحن ، عبيد الكلمات الحرة ، لا يبعث في نفوسنا الا القلق . لان الشاعر الذي نحب ونجل ، هو الشاعر المرفوض (فعلا) ، الشاعر الاهوج والغريب والمتسكع والنفي ، والحملة التي يقوم بها نزار قباني عبر قصائده الجديدة لكسب الثقة بشعره والولاء لمواضيعه ، لن تفلح ابدا بعد ان سقطت كل اسلحته خارج اغمادهم ضجراً وخيبة . ان خمس عشرة سنة كانت كافية لاختراق نفق يصل الشرق بالغرب ، الا انها ما نزار لم تكن كافية لاختراق ميليمتر واحد داخل او خارج جلد المرأة . نهود ومرايا وامشاط ... وامشاط ونهود ومرايا ... كأن العهر هو العمود الفقري للبشرية باسرها .

ان الشاعر حر في ان يكتب ما يشاء ولمن يشاء . والقارىء ايضا حر في ان يحكم بما يشاء . ولاننا قراء ، مع الحرية والكرامة ، نرفع مع نزار ـ المحاضر ـ شعار الكلمة الزهرة ، الكلمة السيف . ولكن للدفاع عن الحرية والكرامة ، لا للدفاع عن خزانة امرأة او تسريحة مراهقة . ثم ـ بصراحة ـ ماذا يهم الجياع والعراة والمضطهدين والمشردين ، في آسيا او فريقيا ، في الهند او في السند ، اذا ما نسي نزار معطفه او جريدته عند حبيبته ، او اذا قصت حبيبته شعرها او غيرت كنزتها ؟ منذ خمسة عشر عاما ولا عمل لنزار في حقل الشعر العربي سوى النواح والشكوى من تصرفات حبيبته ، لانها قصت شعرها او غيرت فستانها . ليرح نفسه ويرحنا دفعة واحدة . وليرفع القضية الى مجلس الامن .

محمد الماغوط

"العصفور الاحدب" وعصر الملفّات

« العصفور الاحدب » ، بقلم محمد الماغوط . بيروت ، كتاب حوار ٢ ، ١٩٦٧

« قد تكون هذه المسرحية فصما لكل عرى الصداقة المعقودة بين المسرح العربي وجمهوره . فانا لا اكتب لنظارة تضحك او تبكي بعدوى من الصفوف الامامية . وقد تسلط هذه المسرحية من الاضواء على ما حولنا من عنف وقسوة ووحل ودماء ، اكثر مما تسلط على ما حولنا من فنادق فخمة وحدائق غناء . فهي ليست مسرحية «سياحية» . وقد تكون ، جملة وتفصيلا ، خليطا من كل شيء الا مما يتكون منه المسرح « كما هو معروف ومتفق عليه » . فهذا لا يعنيني اطلاقا . فانا لست مختصا بالمسرح : ان اختصاصي الوحيد هو الحرية » .

ويتابع محمد الماغوط حديثه عن مسرحيته فيقول :

« عندما بدأت بكتابة هذه المسرحية ، لم اكن اعرف اي شيء عن المسرح ، لا قراءة ولا مشاهدة . وانما شرعت بكتابتها كقصيدة طويلة . ولكن ما ان تجاوزت اولى صفحاتها حتى شعرت بان ثمة اصواتاً اخرى تزاحم صوتي ، تريد هي بدورها ان تصرخ وتتهم وتدافع وتبكي . وسطراً بعد آخر افلت الزمام من يدي ، وراح صوتي

(بكل ما فيه من ثقة وانانية) ينكمش على نفسه ، يتراجع امام الاصوات الاخرى – احتراماً لها ، لا خوفا منها ؛ يتراجع ويتراجه حتى كاد يلتصق بجدار التجربة . ولكنه لم يتلاشَ ولم يتوارَ . بل ظل شاهدا نزيها (كما افهم النزاهة) في محكمة ارضها من الوحل وسقفها من النجوم . ولضرورة التحكم بهذه المسافة الشاسعة بين هذين النقيضين فقدت عزيمة الصبر على توضيح الارشادات المسرحية ورسم حركات الشخوص . لاني اعتبر ايا من تلك الارشادات نشازا في مزمار الشعر ، الذي كافحت طوال حياتي ليبقى صافيا لا يعكره شيء » .

والآن ، ما هي تلك الاصوات التي زاحمت صوت الشاعر ، وارغمته على كتابة مسرحية طويلة بدلا من قصيدة طويلة ؟ في الفصل الاول نلتقي بمعظمها . انها خليط من اصوات الريح والشرطة والمضطهدين والاطفال والعصافير ، اجتمعوا بفعل ظروف معينة في قفص بشري في الصحراء ، حيث لا عمل لهم اناء الليل واطراف النهار سوى الزحف باطرافهم المحطمة على ارض يحبونها وتكرههم ، وتجاذب اطراف الحديث بتلك الكلمات المنمقة . كل منهم يخفي حقيقته وراء جراحه وكلماته ،حتى يحار قارىء المسرحية وهو يبحث عن حقيقة التهم المنسوبة اليهم . وكان اكثرهم احساسا بهذه الحقيقة واشدهم رغبة الى توضيح او تعهد ما بان يكون اكثرهم لباقة وطيبة ، قزم ريفي . وعندما تفتح ابواب القفص امام الجميع ، ينقلب الجميع رأسا على عقب لدرجة اننا ننكرهم ، ويصعب علينا التعرف اليهم ، او بالاحرى تنكشف حقيقتهم بفعل الحرية . كلهم يتغيرون . يعودون الى جلودهم القديمة المرعبة ، ما عدا القزم (الريفي العاطل عن العمل) فهو لم يتغير ابدا ، بل اصبح مدهوشا ومنسحقا لان من عرفهم قد تغيروا . ولذلك راح بدافع من اليأس والغدر الذي حاصره به اصدقاؤه « يدخل مقاهي المدينة كالقرصان ويصرخ : من يشتري حقلا بعيدا بلغافة ؟ » ثم اخذ « لا يضرب السيارات الجديدة بالحجارة ، ويشترك في المظاهرات ، فحسب ، بل يقرع ابواب البيوت ليلا كالمجنون حتى اذا ما خرج اصحابها يسألونه ماذا يريد ينتحب امامهم ويقول : اريد ان انام ».

ولكن من اين يأتينا هذا القزم ، هذا الثائر المجهول المحطم ، من اي ريف ومن اي صقع ؟ انه من قرية صحراوية بائسة ينقطع عنها المطر وتجف فيها الضروع ويتكاثف الغبار ، ويتراكم الفقر لدرجة فقد سكانها صبرهم على متابعة الحياة اذا لم تنقذهم الحكومة . وينتظر شيوخ واطفال ونساء تلك القرية تحت الشمس اللافحة ، امام عتباتهم ، « المندوب الزراعي » ، منفثين عن غضبهم بتقريع بعضهم بعضا : الزوج ضد الزوجة ، والام ضد الطفل ، والطفل ضد الجميع . لا تخاو قلوبهم من الحنان ، بل يخلو العالم من الرحمة .

ويطول انتظارهم للمندوب الزراعي. ويستهلكون هذا الوقت الطويل باعداد لائحة شفهية طويلة بمطالبهم . انا سأقول كذا ، وانت ستقول كذا . انت تجلس هنا ، وانت تجلسين هناك . ولكنهم في اللحظة الحاسمة لا يقولون شيئا . لان الحكومة بدلا من ان تبعث اليهم مندوبا زراعيا ارسلت لهم مندوبا صناعيا . قفز من سيارته الى الارض ، ومن الارض الى المصطبة ، القى من عليها خطبة لم يفقهوا منها شيئا ، ثم امتطى سيارته التي نفثت في وجوه الفلاحين سحابة من الغبار . وبهذه الحركة الآلية اثبت ان زمنه ومفاهيمه تختلف عن زمن ومفاهيم من كانوا بانتظاره . ويحن جنون اهل القرية . ويصبون جام غضبهم على عجوز خرف (كان شيئا آخر فيما مضى) ، يسرق حلوى الاطفال ويلتهمها في الخرائب. الجميع يقفون ضده ، حتى احفاده ، لا احد معه على الاطلاق سوى طائر ضرير احدب ، كلما مسه احد بسوء يصرخ من على شجرته الجرداء . وعندما تتكاثف الغيوم في وجه هذا العجوز ، ويتأكد من ان الايام الماضية لا يمكن ان تعود ، وان الخصب قد ولى ، كما تولي صرخات صديقه الطائر ، ينتحر . فيخيم الصمت على الجميع ، ويتوارى جميع اهل القرية في اوكارهم ، ولا تبقى الا جثة هذا العجوز مسطحة ودامية امام الفقر والخراب ، بعد ان ولت الايام الجميلة وولى الطائر معها .

ان الفصل الاول ما هو في الحقيقة غير زناد يوتر الحوار والغموض والكلام المشبوه ، ليطلق شخوص المسرحية كلا الى مكانه في الفصول التالية .

ولذلك فان كثيرا من النماذج التي لم تكن تعني للقارىء شيئا يذكر في الفصل الاول ، تلعب دور الصدارة فيما بعد . ومن هذه النماذج الفريدة صانع احذية بسيط ، كمسمار ، كقطعة جلد . الا انه ببساطته هذه يربك عدالة باسرها : يخرج من السجن لا ليطالب باحذية او بمسامير بل ليطالب وهو يرفع يديه الى السماء « بالحب والمطر » ، في زمن تخترقه المسامير وتغمره المياه القذرة وكل ما من شأنه ان يجعل من كلمة حب او مطر امرا مثيرا للدهشة .

والغريب ان صانع الاحذية هذا ، مع كونه عاش وترعرع مكبا على الاحذية ومحتضنا اياها ، يرفض ان يقترب اكثر مما ينبغي من حذاء ما عندما يكون الامر خارج نطاق عمله ، وفيه مساس اكيد بكرامته .

ان الحاجب في هذا الفصل العجيب من المسرحية يلعب دورا فريدا لم نألفه في اية ملهاة من قبل . ان المؤلف يربط ، وباسلوب نضاح بالدم والرعب العميق ، المتهم بالقاضي والقاضي بالحاجب والحاجب بالامير والامير بالشعب والشعب بالقاضي ، ثم القاضي بالمتهم والمتهم بالحاجب ، وهكذا الى ما لا نهاية . وكل ذلك بحوار يمزق ذلك القناع التاريخي عن عدالة الملفات او ملفات العدالات .

« المتهم : اعرف يا سيدي ان ملفي كبير كبير ، وان عدالتكم ، بل وكل عدالة في العالم ، تختفي وتبرز كمخالب القط ساعة تشاء . ولكن ما اعرفه ايضا انه منها تكن تلك المخالب صلبة وحادة فانها مقوسة ، ولذلك من المستحيل ان تسير بشكل مستقيم . ثم لا اظن ، من جهة اخرى ، ان هذا الشيء الصغير الموضوع قرب ابريق الماء (مشيرا الى الملف) هو حياتي او حياة مسمار صغير في حانوتي » .

ان صانع الاحذية هو رمز الانسان الذي يرفض ان تختصر حياته بهذا الاسلوب الشنيع . ان جسده بكل ما فيه من دم وقوة لم يستطع ان يلخص حياته . لقد فقد طفولته امام شبابه ، وها هو يفقد شبابه امام كهولته ، فكيف يستطيع الايمان بان ذلك الملف يحتوي على حياته كلها ؟ وعندما يرغم على مثل هذا الايمان وتشتد وطأة الخناق عليه في عالم الملفات يصرخ ملء صدره : اريد مطرا ... اريد مطرا . المطر في السماء ولكن كل شيء جاف على سطح الارض . المطر هنا ايضا رمز عظيم له الف هوية وهوية . وشعور الكاتب بالخطر الذي يتهدد الكرامة الانسانية ، وفقدان الشجاعة على رد الاعتبار اليها ، خطان متوازيان يدفع الكاتب بشخوصه فوقهما حتى ولو الى الموت بحثا عن تلك الكرامة ، عن بقاياها ، ولزرعها من جديد في ملايين الصدور الفارغة منها . ولكن اين هي ؟ اين تبخرت ؟

ان مسرحية « العصفور الاحدب » تجيبنا ، بالوضوح الصارم والرمز العظيم ، بان ثمة قوى لا انسانية تسلب الفرد انسانيته وطمأنينته ومستقبله لانها خائفة وبلا مستقبل . وحتى لا يكون لها مثل هذا الشيء في المستقبل ، فان هذه المسرحية لا تضع القارىء امام احد امرين (مع الضحية او مع الجلاد) فحسب ، بل تصر على ان يرتفع عن مستوى الضحية او يهبط عن مستوى الجلاد .

سنيه صالح

وجه جبران الحقيقي

« اضواء جديدة على جبران » ، بقلم توفيق صايغ . بيروت ، كتاب حوار ١ ، ١٩٦٦

ما ازال اعتقد بان في مراجعة كتاب ، اي كتاب ، نوعا من التطفل المتسكع الذي تضيع فيه ، او تكاد لا تكون ، زهوة الخلق . فالكتاب يُقرأ او لا يُقرأ ، على اعتبار اننا نقرأ احيانا وكأننا لا نقرأ شيئا . ولذلك احب ان اخاطب هنا قارىء كتاب توفيق صايغ « اضواء جديدة على جبران » لا قارىء سطوري انا .

غلاف الكتاب وقاره دسم ، وعلى صفحته الخلفية اقوال فيه لم تستوقفني ، لانها ليست لي . وانا لا اناقض نفسي هنا — اذ انني احب ان احتفظ بصورتي انا عن الكتاب ، ولقد شعرت بانه كتب لي ، ولي وحدي .

ولعل اصفى ما يعطيه حامل الادب لقارئه اعترافه الهامس او غير الهامس بوجوده. في القراءة ارضاء غرور، كما في الخلق ايضا ارضاء غرور آخر.

توفيق صايغ قال لي في توطئة الكتاب بانه ليس باحثا بطبيعته وبانه ليس جبرانيا. اعتراف طريف، قد يكون من دوافعه نوع من التهرب من صفات يرفضها ليظل توفيق صايغ الشاعر.

وكتابه الجديد هذا كان استدراكا جريئا. فالشاعر اقرب الناس الى الحقيقة، واكثر الناس فضولا، واكثرهم شعورا بامانة الخلود، وبمعمودية التخليد التي هي خلق شعري جديد.

بلى، لتوفيق صايغ في كتابه هذا موقف الشاعر، لانه اراد بروحيته الشعرية ان يكون معمدا جديدا لجبران، محاولا ان يقول لي بان ما دفعه الى وضع هذا الكتاب هو حاجتنا الى الادب الشخصي.

كتاب توفيق صايغ ان اعتبرته رثاء لجبران كان رثاء جديدا. وان اعتبرته تخليدا كان تخليدا جديدا. وان اعتبرته تاريخا كان تاريخا جديدا. وان اعتبرته رجمات فضول كان هذا الفضول جديدا، صحيحا.

وبعد، فان الناطقين فيه هما جبران وماري هاسكل. واين ينطق توفيق صايغ؟ أفي سطور التوطئة المتململة بين التواضع الدمث والسرد العلمي المنصف؟ كلا. هو مع سطور الكتاب كلها، وله من الكتاب شعوري بانه كان معي ايضا في لقاء مذهل مع هذا الكشف الجديد. اذ لولاه لما بعث حديث ماري هاسكل وجبران.

ترى، هل تخون السيرة الادب الشخصي؟ بلى، هي تخونها عندما تقطع صلتها بالحياة لتستقر بخزائن المتاحف، فتغدو مرجعا يخاطب ارقام السنين وعناوين الاحداث الراحلة. والادب الشخصي ادب مظلوم ما دام لا يقف جنبا الى جنب مع الادب الآخر، وكأن ما يخطه الاديب في الساعات الحميمة هو غريب عما يخطه للمطابع.

ليس جبران مغمورا وحظه من الشهرة لا يحد، حتى غدا في مخيلة الكثيرين الها او نبيا. ثار الكثيرون على النعيمة لانه خلده بلا هالة. وقد يثور الكثيرون على توفيق صايغ لانه انطقه بطبيعة وعفوية. واعتقد ان هذه الرسائل والمذكرات اعطت جبران طابع الخلود الصحيح — اذ جعلته قريبا، حقيقيا، لا تتعثر تفاصيل حياته بالنسبة الينا بعلامات سؤال، ابتدعت لها في الماضي اجوبة في اكثرها عجز وتخيلات مراهقة.

بلى، يقول توفيق صايغ ان جبران انسان كبير. ويترك لماري هاسكل ان تحدثنا عن ذوقه، عن عصبيته، عن فقره، عن اتكاليته، عن غروره، عن تصوراته، عن تناقضاته في الحب، في الصداقة، في النقد.

كانت علاقة جبران بالنساء، ومنهن ماري هاسكل، حكايا معقدة اقحمها المفسرون الحائرون في عوالم الاساطير. ومثل هذه الاساطير لا يمكن ان تظل اساطير. ولعل في هذه الرسائل والمذكرات وحدها اسطورة حب جبران، هذا الحب الذي كان له ارضه وسماؤه وضبابه ومستنقعاته.

الادب الشخصي يدربنا على الشجاعة، قبل ان يشبع فضولنا. فهو يساعدنا على كبح جماح تخيلات نتصور بها الاديب انسانا متفوقا ولكنه غير مكتمل الصورة. وفي حميميات الاديب هذه، الاضواء الصحيحة على تفوقه وعبقريته. والعبقرية لها مآسيها ولها سخفها ولها جبنها ولها قلقها ولها اطماعها الكثيرة.

وفي هذه الرسائل والمذكرات كل من هذه الظلال التي لازمت جبران في مواقفه الحميمة، وخاصة في علاقته مع ماري هاسكل — هذه المرأة التي تخاصمت حولها النعوت والاوصاف، ولكنها تبقى اكثر الناس تقربا اليه وآمنهم على حفظ آثاره. ومن وديعتها حمل الينا توفيق صايغ صورا للوحات جبرانية ولرسائل لها ولجبران تزود الكتاب بحيوية اخرى.

هذا كتاب جديد. والجديد فيه ان سطوره لم يلجمها استعداد سابق لان تنشر في كتاب. كان فيها جبران بين يدي كاتمة اسرار، تصغي اليه بثقة وهو يحدثها بعفوية المتكلم — لا الخطيب ولا المحاضر ولا الكاتب. كان جبران مغرورا يختال امامها، هذه الوفية، اختيالا دونكيشوتيا. يحدثها عن نبل اصله وعراقته وعن جهاده السياسي ضد الاتراك وقد توج برصاصة ادمت ذراعه فنجا من

الاغتيال !

وكان جبران (يقول) يمر في حالات صوفية تجمعه رؤاها بالمسيح . وكان جبران يحب الجنس ولا يحبه. وكان جبران بخيلا وكريما . وكان جبران يحلم بامبراطورية عربية ويريد العمل على اقامتها ، ثم يقول لماري ان اللبنانيين يختلفون عن السوريين اختلاف الامريكيين عن المكسيكيين !

اما رأيه في الادباء والفنانين ففيه الكثير من العفوية الطيبة. قال لماري مرة وهما في احد مطاعم نيويورك سنة ١٩١٣ : « كم اكره ذلك الرجل . لقد انتزع الكلمات من رأسي وقطف الثمار من الشجرة التي كنت ادنو اليها . غير انه هو متقدم على عصره ثلاثمائة سنة ، وانا ساصنع شجرة واقطف ثمارها لستمائة سنة للامام » . ذلك الرجل هو الفيلسوف نيتشه ! ويقول لماري ايضا انه قد رأى في احلامه جميع الرجال العظام تقريبا ، ثم يستدرك قائلا : « ان الاحلام حقيقية لكنها ليست مؤثرة كما هي احلامي عن المسيح » .

ويقول لماري سنة ١٩١٦ : « ان امام الفنان طريقين لا اكثر للعيش حسبهما : اما ان ينتج نتاجا جيدا ويحيا حياة كلاب ، او ان يكون معلنا (عن نفسه) ويلاحق ما يسنح من امكانيات اجتماعية ويكون مسليا ومؤانسا . وكل من الطريقين خطأ . وانا ليس بوسعي ان افعل هذا او ذاك — فلست مهيأ لذلك » .

وتقرأ ، ثم تحفظ ، ماري هاسكل آراءه في هذا وذاك من الفنانين والادباء . وفي آرائه تلك كثير من عفو الخاطر الذي لا يخلو من التسرع . وتصغي اليه (١٩١٥) : « تعرفين يا ماري اي هناء كان يجيئني عندما كنت اسمع الناس يمتدحون نتاجي — اما الآن فان المديح يحزنني حزنا غريبا ، لان المديح يذكرني باشياء لم اقم بعملها بعد . واحيانا اشعر انني غبي ووحيد — اني اريد ان احب للاشياء التي لم اقم بعملها بعد » . ويقول لها (١٩١٦) : « انا لست مفكرا . انا خالق اشكال » . ويذكر لها امنيته وطموحه في عمله (١٩١٢) : « ان انا استطعت ان افتح لانسان ما زاوية جديدة في قلبه هو فاني لا اكون قد عشت عبثا » . ويسمي الاثر الفني (سنة ١٩٢٤)

« علاقة حب بين الفنان والقارىء » .

وأقف هنا ، لان العرض تطفل متسكع ومسخ مدّعٍ .

في هذا الكتاب اجوبة كثيرة عن اسئلة حول جبران تختلف باختلاف القارىء واغراضه . وانا ، المرأة ، ايقظني وطوقني جواب لسؤال لجوج طالما الح عليّ طويلا ، وهو : هل احب جبران ماري؟

اقول انا ، بعد رفقتي لهذه الرسائل ، انه لم يحبها ذلك الحب الذي تحبه المرأة . اعطاها اشياء كثيرة ، اهمها عرفان الجميل . كانت له الجوهرة لا الوردة . وعاشت علاقتها حياة رائعة — ينقصها ذلك الشيء الذي لا اعرف ماذا اسميه ...

ماري هاسكل امرأة فشلت . ولكنها امرأة عظيمة قوية ، لانها اخصبت هذا الفشل وصبرا . كانت تدفعه دفعا للكتابة ، للتعبير عن آرائه ، لتأكيد وجوده معها ومع الآخرين ، في تقربها والتصاقها به الى مستوى القداسة . ولكنها لم تكن الحبيبة . ولم تكن مريم [redacted]

في هذه الرسائل والمذكرات تقاسمها [redacted] البطولة مع جبران . كانت عظيمة جبارة لي ان في تساميها تسابقا منتصرا مع حزن الصامتة الدفينة .

بعد هذا الكتاب لم تعد ماري هاسكل جبرانيا . ان صورتها في الكتاب اكثر من واضحة وعلاقتها بجبران فيه واضحة على قدر ما يحتاج حدسي الانثوي .

والآن حان الوقت لأكرر ما قاله توفيق صايغ في كلمته التمهيدية ، بانه ليس باحثا وليس جبرانيا. والتكرر مل . لكنه يضعف احيانا من معنى القول — وهذا هو قصدي .

بلى ، انه باحث وجبراني — بمعنى جديد وبحلة جديدة اعطت لجبران حقا جديدا في البقاء والخلود.

لقد روّض توفيق صايغ حدة الخلاف بين اللغتين العربية والانكليزية ، فكان ، في نقله (حيث نقل من الرسائل والمذكرات) ، الشاعر المتمكن .

وبعد ، هل تلي مراجعة الكتاب ؟ لا : انها تطفل قاصر ، لا ينضجه سوى الكتاب نفسه .

نور سلمان